بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى

الحمد لله الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم قوله: ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمت ورضيت لكم الإسلام ديناً )

وصل اللهم ربنا وسلم على عبدك ورسولك محمد وآله

أما بعد

فالحديث عن محاسن الإسلام هو حديث في غاية الأهمية والحكم والمصالح والفوائد التي تترتب وتتبني على الحديث عن محاسن الإسلام كثيرة جداً وبعضها راجع إلى استفادة المسلمين أنفسهم حين يعرفون محاسن دينهم مما يزيدهم إيماناً وطمأنينةً كما قال صاحب كتاب محاسن الإسلام وهو أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن البخاري المتوفى في القرن السادس الهجري قال في بداية كتابه محاسن الإسلام : من طلب شيئاً بعدت شقته لابد أن تلحقه مشقته

فلابد له من معرفته ومعرفة منافعه ليحمله ذلك على تحمل المشقة وقطع الشقة وقطع المسافة والرضا بالتلف والآفة

قال : فهذا حملني عند ضعفي وكبر سني على أن أتفحص من محاسن الإسلام والشرائع فأبرز في كل أمر مشروع من سر حسن مطبوع على وجه يرضاه من دان للإسلام إذا أنصف من عقله ولم يظهر العناد من فعله وقوله

واضح هنا من كلام البخاري رحمه الله أنه يتحدث عن الأثر الحسن للحديث عن محاسن الإسلام على المسلمين أنفسهم لما ذكره من أن من سار في طريق طويل شاق يحتاج إلى أن يعرف منافع سلوك هذا الطريق لكي يتحمل المشقة

ومن الفوائد والثمرات للحديث عن هذا الموضوع ما يكون راجعاً إلى غير المسلمين بأن يعرفوا محاسن هذا الدين الذي يُدعون إليه ويرون عظمته ويدركون بهاءه وتميزه وخصائصه العظيمة فيدخلون فيه محبين مقتنعين مسارعين إلى إدراك هذا الحسن

إذن فالحديث عن محاسن الإسلام من الأمور المهمة جداً في هذا الوقت خاصة وفي كل الأوقات ولكن في هذا الوقت حقيقة هناك حاجة أكبر وماسة للحديث عن محاسن الإسلام بحكم أننا نعيش صراعاً في الأفكار صراعاً في الثقافات صراعاً في الأديان وانفتاحاً في السوق الفكرية بحيث إن البضائع الفكرية تُقدم وتعرض ويُدعى لها بكل وسائل الدعوة والتسويق حتى صار بعض المسلمين يقع في نفسه شيء من الحرج أو من الشك أو من الحيرة تجاه بعض الأحكام الشرعية والأحكام الإسلامية

وقبل أن أبدأ بالنظرات المنهجية والقضايا المنهجية المتعلقة بمحاسن الإسلام وبعد أن ذكرتُ الفائدة والثمرة من الحديث عن محاسن الإسلام هنا أمر مهم وهو إشارة سريعة إلى مناهج الكتّاب والباحثين في تناول موضوع محاسن الإسلام

لن أطيل في هذه النقطة لكن هي نقطة من الأمور التي تهم الباحث المعتني بهذا الباب

هناك من كتب في محاسن الإسلام من المتقدمين ومن المتأخرين لكن طريقة الكاتبين والمؤلفين في هذا الباب ليست واحدة فهناك من كتب من العلماء في محاسن الإسلام على طريقة أبواب الفقه

تعلمون أن الفقه الإسلامي مرتب على أبواب بدءاً من الطهارة فالصلاة فالزكاة فالصيام فالحج ثم بعد ذلك ترتيب أبواب الفقه انتقالاً إلى المعاملات وإلى الحدود والجنايات والقضاء والشهادات وما إلى ذلك

فعدد ممن كتب في هذا الباب كتب على هذا المنوال يأخذ أبواب الفقه باباً باباً ويذكر المحاسن التي تنبني على هذا الباب الفقهي فيتناول الأحكام الشرعية العملية الفقهية ويذكر محاسنها وممن سار على ذلك الإمام أبو بكر القفال في كتابه محاسن الشريعة

فنجد أنه تناول في البداية مثلاً باب ذكر ما يوجب طهارة الوضوء باب ما يوجب طهارة الاغتسال باب ذكر المسح على الخفين باب ذكر طهارة التيمم باب ذكر النجاسات باب أحكام الحيض باب عدد ركعات الصلوات باب ذكر صلاة النوافل باب ذكر صلاة الجماعة . . .الخ ثم كتاب الجنائز باب ما يُعمل به في الموتى قبل الغسل كتاب الحج الزكاة الطعام والشراب واللباس والزينة والأيمان والكفارات. . .الخ

أي واحد درس الفقه حين يسمع قراءتي لهذه الأبواب لا يشك أنني أقرأ من كتاب فقه وليس من كتاب في المحاسن والمقاصد ولكنه كتاب في المحاسن والمقاصد

نفس الشيء في كتاب البخاري الذي ذكرته في البداية وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري في كتابه محاسن الإسلام

صنّف كتابه على كتب، تعرفون البعض يقول باب كذا باب كذا بعضهم يقول كتاب كذا وكتاب كذا فمثلاً كتاب الوديعة ومحاسنها كتاب البيوع ومحاسنه كتاب الصلح ومحاسنه كتاب الدعوة ومحاسنها كتاب الإجارات ومحاسنها كتاب الوكالة والكفالة ومحاسنها كتاب الهبة كتاب الوصايا كتاب الأشربة كتاب الشهادات محاسن القضاء . . .الخ

طبعاً هذا يُضمِّن لفظ المحاسن في التبويب لكن تلاحظون أن الترتيب ترتيب أبواب الفقه الإسلامي

هذا مفيد جداً لكن مما يمكن أن يُلحظ على هذه الكتب أنها لا تتناول كليات محاسن الشريعة أو محاسن الإسلام

قد يشير بعضهم إشارة سريعة إلى بعض محاسن الاعتقاد الإسلامي مثل البخاري بدأ بكتاب الإيمان لكنهم لم يتناولوا أبواب الاعتقاد وأبواب الأصول الكبرى للإسلام بإفراد وبمحاولة استقصاء

عندنا طريقة أخرى للكتابة في محاسن الإسلام وهي الطريقة الشمولية فممن كتب في ذلك من المعاصرين الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى في كتابه الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي وكتب في بداية الكتاب الثمرات

التي تترتب على الحديث عن محاسن الإسلام وواضح أن الثمرات التي ذكرها الشيخ رحمه الله أنه ينوع بين الثمرات الراجعة للمسلمين والثمرات الراجعة لغير المسلمين

وذكر في البداية أن الحديث عن محاسن الإسلام هو من أكبر أبواب الدعوة إلى الإسلام حتى ولو لم تُبطل شُبه المخالفين

هو تناول مجموعة من المحاسن سواء في الاعتقادات أو في العبادات بشكل إجمالي ولكن هذه الرسالة تصلح للقراءة الأولية للمبتدئين في القراءة يعني يصلح أن يكون كتاباً حتى لطلاب المرحلة المتوسطة ونحو ذلك

فهو كتاب ليس فيه القوة الاستدلالية وإنما هو كتاب يعرض هذا الموضوع بصورة سهلة ميسرة فهو نافع جداً لصغار السنن والمبتدئين في القراءة

من المناهج في تناول محاسن الإسلام منهج من تناول محاسن الإسلام من جهة الأخلاق ومن أبرزهم الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه دستور الأخلاق في الإسلام فهذا الكتاب وإن كان تناول النظرية الأخلاقية الإسلامية بشكل عام وقارنها ببعض النظريات الأخلاقية الفلسفية الأخرى إلا أنه في آخر الكتاب أفرد آيات القرآن التي تشكل المنظومة الأخلاقية الإسلامية فكأنها أشبه ما تكون بنصوص الدستور القانوني ولكن من ناحية أخلاقية

ومنهم من اعتنى بباب محاسن الاعتقاد الإسلامية وممن كتب في ذلك من المعاصرين من أجمل ما كُتب في ذلك ما سطره فريد الأنصاري رحمه الله تعالى في كتابه جمالية الدين معارك القلب إلى حياة الروح حيث تناول في هذا الكتاب جماليات التوحيد وجمالية لا إله إلا الله ومفهوم الإله والعلاقة التي تحكم تعبد الإنسان لخالقه سبحانه وتعالى جمالية التعريف القرآني بالله سبحانه وتعالى جمالية عقيدة اليوم الآخر الإيمان بالغيب الموت الحياة الآخرة. . .الخ من المباحث في هذا المجال وهو في رأيي من أفضل ما كُتب في محاسن الاعتقاد الإسلامي وهناك رسالة أيضاً مختصرة لأحمد المزيد بعنوان محاسن العقيدة الإسلامية

هناك من كتب في محاسن الإسلام مقارناً بين الإسلام وبين غيره من الديانات ومن الأفكار المعاصرة وهو وإن لم يتتبع محاسن الإسلام بشكل عام إلا أنه أبرز تميز الإسلام على غيره وأبرز تفوقه على غيره في مجالات متعددة متنوعة

ومن أبرز من كتب في ذلك علي عزت بيجوفيتش رحمه الله تعالى في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب

ومن الكتب المشهورة أيضاً في هذا المجال كتاب أبي الحسن الندوي رحمه الله ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين حرص فيه على المقارنة بين الإسلام وبين الجاهلية في العصر القديم وبين الجاهلية الأوربية الغربية المعاصرة

على كل حال الكتب في هذا المجال كثيرة ومتنوعة هناك من أفرد مسائل أو قضايا قارن فيها بين الإسلام وغيره كما فعل البوطي في كتابه المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني

على كل حال ليس هذا مجال الاستقصاء ولكن الذي أريده من هذا العرض هو أن أذكر لماذا نتحدث عن هذا الموضوع مع أن فيه كل هذه البحوث وكل هذه الدراسات

حقيقة أنا أريد أن أتحدث عن هذا الموضوع لأركز على الناحية الإستدلالية وعلى القضايا المنهجية في إحكام الحديث عن هذا الباب ولأركز على الأصول والكليات التي يُنطلق منها إلى الحديث عن محاسن الإسلام فلن أستعرض في هذه المادة مثلاً المحاسن التفصيلية للطهارة وللصلاة والنكاح والطلاق وأنواع الفقه الإسلامي والأحكام الشرعية الإسلامية كما أنني لن أستعرض أفراد تفاصيل الأمور الاعتقادية في الإسلام ومحاسنها وإن كنتُ قد أعرج على شيء من ذلك لكن ليس هذا العرض في هذه المادة عرض استقصائي لمحاسن تفاصيل العبادات وتفاصيل الاعتقاد الإسلامي وإنما هو عرض للقضايا الكلية وأصول ومنطلقات يُتوصل بها إلى إحكام الحديث عن محاسن الإسلام فهي نظرات منهجية كما قدمت

أبدأ مستعيناً بالله سبحانه وتعالى لأقول

القضية المنهجية الأولى هي أن هذا الدين العظيم لا يمكن أن تُفهم محاسنه ولا أن يُتوصل إلى جمالياته إلا بإدراك نظرته الكلية للكون وللوجود وللحياة وللدنيا وللآخرة وللإنسان وللغاية من وجوده وإيجاده على هذه الأرض وللحكمة من التكليف الشرعي

هذه كلها منطلقات لا يمكن أن تُفهم محاسن الأحكام الشرعية التفصيلية إلا بإدراك هذه النظرة المتكاملة الكلية

ولذلك فإن كثيراً من الاستشكالات والاعتراضات التي تُثار ضد أحكام الشريعة هي ناشئة عن التجزئة وناشئة عن فصل الفروع عن الأصول وعن فصل الأحكام عن الغايات الكبرى والمقاصد العظمى من هذا الدين بشكل عام

فإدراك هذا التكامل وهذه النظرة الشمولية عن الكون والحياة الإسلام لم يأتِ ليكون مجرد مشرع لخمس صلوات في اليوم والليلة أو لإمساك عن الطعام من الفجر إلى المغرب في رمضان ولا لقضية الحج فقط لا هذه الأحكام هي كلها لتحقق مقاصد وغايات وحكم أعظم منها وأكبر من مجرد أداء العبادة دون استحضار هذه المقاصد الكبرى

لذلك اسمعوا معي هذا النص وتأملوا معي هذا النقل :

إن الإسلام وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية جميعاً لم يعالج نواحيها المختلفة جزافاً ولم يتناولها أجزاء وتفاريق

وذلك أن له تصوراً كلياً متكاملاً عن الألوهية والكون والحياة والإنسان يرد إليه كافة الفروع والتفصيلات ويربط إليه نظرياته جميعاً وتفصيلاته وحدوده وعباداته ومعاملاته فيصدر فيها كلها عن هذا التصور الشامل المتكامل ولا يرتجل الرأي لكل حالة ولا يعالج كل مشكلة وحدها في عزلة عن سائر المشكلات ومعرفة هذا التصور الكلي عن الإسلام تيسر للباحث فيه فهم أصوله وقواعده وتسهل عليه أن يرد الجزئيات إلى الكليات وأن يتتبع في لذة وعمق خطوطه واتجاهاته ويلحظ أنها متشابكة متكاملة وأنها كلٌّ لا يتجزأ وأنها لا تعمل عملاً مثمراً للحياة إلا وهي متكاملة الأجزاء والاتجاهات . . .

خاتمة الكلام يقول:

وطريق الباحث في الإسلام أن يتبيّن أولاً تصوره الشامل عن الألوهية والكون والحياة الإنسان قبل أن يبحث عن رأيه في الحكم أو رأيه في المال أو رأيه في علاقات الأمم والأفراد فإنما هذه فروع تصدر عن ذلك التصور الكلي ولا تُفهم بدونه فهماً صحيحاً عميقاً . .

ثم نبّه تنبياً قال:

والتصور الإسلامي الصحيح لا يُلتمس عند ابن رشد أو عند ابن سينا أوالفارابي وأمثالهم ممن يُطلق عليهم وصف فلاسفة الإسلام ففلسفة هؤلاء إنما هي ظلال للفلسفة الإغريقية غريبةٌ في روحها عن روح الإسلام وللإسلام تصوره الأصيل الكامل يلتمس في أصوله الصحيحة القرآن والحديث وفي سيرة رسوله صلى الله عليه وسلم وسننه العملية وهذه الأصول هي حسب أي باحث متعمق ليدرك تصور الإسلام الكلي الذي يصدر عنه في كل تعاليمه وتشريعاته ومعاملاته

(من كتاب العدالة المجتمعية في الإسلام )

هذا الكلام هو المنطلق المنهجي الأول والقضية المنهجية الأساسية لإدراك محاسن الإسلام

ففصل التشريعات عن النظرة الكلية للوجود والكون والحياة والدنيا والآخرة والإنسان هذا لا يمكن أن يؤدي إلى فهم محاسن تشريعات الإسلام

القضية المنهجية الثانية

لا يمكن أن نُفهم محاسن الإسلام إلا بفهم حقيقة التعبد على الوجه الذي أراده الله سبحانه وتعالى وألا تُختزل نظرة الإنسان للتعبد في الإسلام وطبيعة العلاقة بين الإنسان المسلم المستسلم لله وبين الله سبحانه وتعالى في بعض الممارسات التعبدية التي تمثلها بعض الطوائف أو بعض الأفراد وإنما هذه القضية تُلتمس من إدراك عميق للكتاب والسنة وتُلتمس كذلك من كلام علماء المسلمين الذين اعتنوا بإبراز مفهوم التعبد ومفهوم الإله وما الأمر الذي يجب أن يكون في نظرة الإنسان لهذا الإله الخالق سبحانه وتعالى من خلال التنقيب في آيات الكتاب وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم

هناك كثير من العلماء اعتنوا بإبراز هذه القضية فإدراك التصور عن الإسلام من هذا الوجه ومن هذا المنطلق هو الذي يوقف الناظر على حقيقة الإسلام وحقيقة التعبد فيه لأن النظر إلى الإسلام على أنه ممارسات تعبدية طقوس وشعائر مثلها مثل أي ديانة أخرى ممارسة روحية معينة يمكن حتى أن تُلتمس في غير الأديان كما يقول البعض أو يحاول أن يصور البعض في بعض الفلسفات الشرقية ونحو ذلك

تصوير العبادة في الإسلام بهذه الطريقة أو على الجهة الأخرى تصويرها على أنها خوف ورهبة وتغليب لجانب الفزع والرعب وعدم التوازن بين الخوف وبين المحبة أو حتى في الانفصال بين القلب وبين العمل الذي يمكن أن يقع عند كثير من المسلمين كل هذا ليس هو الإطار الحاكم لفهم قضية التعبد في الإسلام

من أجمل من رأيته أشار إلى هذا المعنى وقرره وتكلم عن أبعاده وغاص في أعماقه وأبرز تفاصيله وتكلم عن تجربة شخصية مر بها في هذا الإطار هو فريد الأنصاري في كتابه جمالية الدين معارج القلب إلى حياة الروح

وكان منطلقه في ذلك هو في مفهوم الإله وقد أطيل في النقل عنه لكن كلامه محل للتأمل العميق الذي يبرز جمالية الدين الإسلامي في نظرة الإنسان إلى الإله مفهوم الإله مفهوم التعبد كيف يعبد الإنسان ربه أو ما الشعور الذي يتملك الإنسان المسلم إذا عبد ربه سبحانه وتعالى

يقول:

كلمة إله في أصل استعمالها اللغوي كلمة قلبية وجدانية أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة على أحوال القلب كالحب والبغض والفرح والحزن والأسى والشوق والرغبة . . .الخ

أصلها قول العرب أَله الفصيل يأَلَهُ ألهاً إذا ناح شوقاً إلى أمه والفصيل ابن الناقة إذا فطم وفصل عن الرضاعة يُحبس في الخيمة وتُترك أمه في المرعى حتى إذا طال به الحال ذكر أمه وأخذه الشوق والحنين إليها وهو آنئذٍ حديث عهدٍ بالفطام فناح وأرغى رغاءً أشبه ما يكون بالبكاء فيقولون أَله الفصيل فأمه هنا هي إلهه بالمعنى اللغوي أي ما يشوقه ومنه قول الشاعر

ألهتُ إليها والركائب وُقَّفُ

طيب هذا الآن في الأصل اللغوي يقول:

هكذا فأنت ترى أن مدار المادتين أَلِهَ وولِه هو على معانٍ قلبية ترجع في مجملها للتعلق الوجداني والامتلاء بالحب فيكون قول المؤمن لا إله إلا الله تعبيراً عن ما يجده في قلبه من تعلق بربه تعالى أي لا محبوب إلا الله ولا مرغوب ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصدُ الله إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير الذي ناح شوقاً إلى أمه إذ أحس بألم الفراق ووحشة البُعد

إن المسلم الذي يشهد ألا إله إلا الله يقرُّ شاهداً على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله رغبةً ورهبة وشوقاً ومحبة وتلك لعمري شهادة عظيمة وخطيرة لأنها إقرار واعتراف بشعور لا يدري أحد مصداق مافيه من الصدق إلا الله ثم الشاهد نفسه

ومعاني القلب لا تُحد بعبارات ولا تحصرها إشارات ومن هنا كانت شهادة ألا إله إلا الله من اللطافة بمكان بحيث لا تُدرك على تمام حقيقتها إلا ذوقاً

ثم ينقل عن ابن القيم رحمه الله تعالى كلامه في المحبة كلام عجيب وعظيم في مدارج السالكين يقول

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان ولتعطلت منازل السير إلى الله فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها بل هي حقيقة الإخلاص بل هي نفس الإسلام فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله فمن لا محبة له لا إسلام له البتة بل هي حقيقة شهادة ألا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يألهه العباد حباً وذلا وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعة له بمعنى مألوه هو الذي تألهه القلوب أي تحبه وتذل له . . .إلى أخر كلامه رحمه الله تعالى

بعد ذلك استعرض فريد الأنصاري تجربة شخصية لمراحل تدينه وكيف أنها بدأت بالتصور المختصر البسيط وبعد ذلك انتقاله إلى إدراك بعض المفاهيم الإسلامية والمفاهيم الحركية الإسلامية ودفاعه عنها ومع ذلك يقول لم أصل إلى اللذة الحقيقة للإيمان حتى أوقفه أحد مشايخه وأساتذته على معنى الإله وحقيقة هذه القضية وبعد ذلك كيف عاش في هذا الجمال فيقول مثلاً

بدأت المراجعة في حياتي كلية واكتشفتُ حقيقة أن هناك شيئاً اسمه حلاوة الإيمان ذوقاً لا تصوراً حقيقة لا تخيُّلاً ثم بدأت أعود إلى القرآن فوجدت أني كنتُ بعيداً جداً عن بشاشته وجماله وبدأتُ أعود إلى السنة فوجدتُ أني كنتُ أجهل الناس بأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام وبدأتُ أراجع ماقرأتُه عن العقيدة فوجدتُ صفحات مشرقة مما كتب السلف الصالح قد مررتُ عليها مرور الأعمى لا مرور الكرام بسبب ما غطّى بصري من فهوم سابقة حتى كأني لم أقرأ قط

قلتُ ولم تكن مفاجأتي علمية بقدر ما كانت وجدانية لقد كنتُ أقرأ عبارات المحبة والشوق والخوف والرجاء ولكن دون أن أجد لها شيئاً من نبض الحياة في قلبي

يقول: أنا لا أتهم المفاهيم التي كنتُ عليها سابقاً وإنما كانت ظروف التلقي سيئة للغاية

المقصود أيها الكرام هو أن الإسلام لا يُفهم إلا إذا فُهمت حقيقة التعبد فيه وفُهم الموقف أو الشعور أو الاعتقاد الذي يصاحب الإنسان تجاه ربه إذا أدى العبادات التي شرعها الله سبحانه وتعالى

ولذلك العز بن عبد السلام في قواعده يقول

المقصود من العبادات كلها إجلال الإله وتعظيمه ومهابته

ومن يتأمل في كتاب الله سبحانه وتعالى سيجد هذا المعنى ظاهراً وواضحاً وكذلك من يتأمل في سنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حين تسمع مثلاً حديث النبي صلى الله عليه وسلم : ( إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله )

فهذه العبادات الموصلة إلى معانٍ عظيمة وهي في نفس الوقت مأمور بها وأداؤها هو في الحقيقة من أداء التعبد والانقياد والاستسلام والخضوع والقبول لما شرع الله سبحانه وتعالى

هذا تصورٌ إذا أدركه الإنسان وعرفه بشكل جيد فإنه سيقف على صورة معرفية لمحاسن الإسلام وهي لا تغني عن التذوق الحقيقي فمحاسن الإسلام يمكن أن تُعرف بالتصور ويكون هذا مدخلاً ثم بالأداء والعمل فللإسلام طبيعة خاصة يهب الله سبحانه وتعالى من يؤدي عباداته على الوجه الذي أراد وأحسن بذلك يهبه من جمال الحياة ومن حسن المعرفة ومن نور القلب ومن سعادة الروح مالا يمكن أن يعبّر عنه بالتعبير الذي يصفه بدقة كما قال من قال من العباد :

إنا نجد من اللذة والسعادة ما لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف

القضية المنهجية الثالثة

أن من أهم وأبرز محاسن الإسلام التي توقف الناظر فيه على جماله وبهائه وتميزه أنه دين قد جاء مبرهناً على صحة كل أصوله وهذه القضية لا تجدها في أي دين آخر ولاتجدها في أي توجه أو تيار أو مذهب أو طائفة فإنك إذا نقبت في المذاهب الدينية أو في الأديان وإذا أخذت أبرزها وأشهرها فإنك لاتجد من البراهين القاطعة على صحة أصولها ما تجده في الإسلام فإذا قلت مثلاً الكتب المقدسة التي بنيت عليه تلك الأديان إثبات صحة أصول هذه الكتب فيه من العسر والدخَل والدخَن الشيء الذي لا يوصف من انقطاع الأسانيد وانقطاع الزمن الطويل ومن جهالة الكتّاب ونحو ذلك

مفهوم الإله أيضاً لديهم فيه إشكال كبير وهذه القضية تأتينا إن شاء الله في النظرات المنهجية وهي المقارنة فإن المقارنة بين الإسلام وبين غيره في مختلف القضايا هي من أبرز ما يوصل إلى حسن الإسلام وتميزه وفرادته وخصائصه وتقدمه على غيره فالبرهنة على صحة الأصول لا توجد إلا في الإسلام بهذه الكثافة وبهذه القوة فإنك تجد أن الأصل الواحد من أصول الإسلام يمكن أن يبرهَن عليه بطرق كثيرة والطريق الواحد من هذه الطرق يضم فروعاً كثيرة جداً

ومن أبرز الأمثلة على ذلك حين نتحدث عن دلائل النبوة وقد أشرتُ إلى شيء من ذلك في محاضرة تكامل أدلة النبوة وتنوعها وأن القضية قضية ضخمة وهائلة جداً وأن الموضوع إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ليس أمراً مختصراً هكذا يُنظر إليه في واحد من أخبار الغيب أو واحد من الآيات هذا الشيء من آلاف الأشياء أو من مئات الأشياء بل إن نوعاً واحداً من أنواع الأدلة ذكر بعضُ العلماء في أفراده ألف دليل فالآيات والدلائل على صحة وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً ومتنوعة ومتكاملة وهذا فقط في أصل من أصول الإسلام

إذا انتقلتَ إلى القرآن هناك تلازم بين إثبات النبوة وبين إثبات القرآن وبحثتَ عن دلائل صحة هذا القرآن الكريم فإنك تجد أيضاً أنواع الأدلة وتظافرها وتجد أنها كثيرة ومتنوعة فإذا قرأت في كتب إعجاز القرآن التي كتبها المتقدمون قبل المكتشفات العلمية الحديثة ستجد أمراً عجباً وما كتبوه في حد ذاته فيه أصلاً تكامل وتنوع فمثلاً من يقرأ كتاب بيان إعجاز القرآن للخطابي رحمه الله تعالى أو من يقرأ كتاب إعجازالقرآن للباقلاني أو كتاب دلائل الإعجاز للباقلاني أو من

يقرأ النبأ العظيم لمحمد عبدالله دراز سيجد أن قضية القرآن قضية عظيمة وإثبات صحة هذا الأصل هو إثبات بطرق كثيرة

فإذا ذهبت إلى قضية نقل القرآن وجمع القرآن ستجد أن في ذلك من الخصائص ما لا يوجد في أي ديانة أخرى

إذن مما يتميز به الإسلام مما يدل على حسنه هو أنه دين مبرهن جاءت براهينه معه جاءت براهينه فيه على صحة أصوله مما لايتوفر في أي شيء آخر

إذا نظرت إلى الإطار اللاديني مثلاً فذهبتَ إلى الملحدين فإذا أردتَ أن تأتي بالبراهين على صحة أصولهم ستجدها براهين مفلسة جداً وستجد أن التحديات تواجههم في أصل الأصول التي يعتقدونها وإنما أكثر ما لديهم في باب الإثبات نظريات مختلفة متضاربة لا تكاد تثبت على شيء محدد وفي باب النفي شبهات وإشكالات واعتراضات أما المنظومة الإثباتية للمنهج الإلحادي أو التيار الإلحادي فهي منظومة إثباتية هشة كثير من الملحدين أصلاً ليس عندهم إثبات وإنما غاية ما لديه النفي فهم يتغذون على الشبهات يعني دينهم أو مذهبهم أو توجههم أو تيارهم هو تيار إذا لم يأكل من رمم الشبهات فإنه لايمكن أن يكون شيئاً وإنما هو توجه مبني على الاعتراضات والإشكالات والهدم وأما البناء فهم أبعد الناس عنه

وكذلك إذا ذهبت إلى الدين الربوبي أو الدين الطبيعي فإنك تجد أنهم يتفقون مع المسلمين أو مع الأديان الإبراهيمية في بعض القضايا حتى لا يتفقون في تفاصيل الإله وصفات الإله وإنما في أصل إيجاد الكون من قِبل خالق

لكن بعد ذلك الأصل الذي قاموا عليه في عدم تواصل الخالق كما يسمونه مع المخلوقين فإنه أصل هش يستنقص من قدر هذا الخالق ولا يوجد براهين بنائية تدل على صحة هذا المعنى وإنما غاية ما لديهم هي إشكالات هدمية

إذن هذا من أبرز محاسن الإسلام الكبرى التي تثبت صحة هذا الدين ثم بعد ذلك إذا أثبتنا صحة هذا الدين يمكننا أن نثبت محاسنه من نصوصه ومن الأخبار التي جاءت فيه إضافة إلى أننا أصلاً نثبت محاسنه كما أسلفت من طرق متعددة ومتنوعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى الحمد لله الذي أنزل على عبده ورسوله قوله سبحانه : (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً)

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد

أما بعد

هذا هو الجزء الثاني من محاضرة مقدمات أو نظرات منهجية في محاسن الإسلام وقد ذكرتُ في بداية الجزء الأول الفوائد والثمرات التي يُخرج بها من الحديث عن محاسن الإسلام ونقلتُ عن الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى ما أشار إليه من أن ذكر محاسن الإسلام هو من أهم أبواب الدعوة إلى الإسلام ثم وقفتُ بعد ذلك على كلام لابن القيم في بدائع الفوائد في المجلد الثاني يقول فيه بعد أن ذكر السلام في الإسلام السلام بالتحية قال:

وقد بان لك أنها من محاسن الإسلام وكماله فإذا كان هذا في فرع من فروع الإسلام وهو التحية التي يعرفها الخاص والعام فما ظنك بسائر محاسن الإسلام وجلالته وعظمته وبهجته التي شهدت بها العقول والفطر حتى إنها من أكبر الشواهد وأظهر البراهين الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكمال دينه وفضله وشرفه على جميع الأديان وأن معجزته في نفس دعوته فلو اقتُصر عليها كانت آية وبرهاناً على صدقه وأنه لا يُحتاج معها إلى خارق ولا آية منفصلة بل دينه وشريعته ودعوته وسيرته من أعظم المعجزات عند الخاصة من أمته حتى إن إيمانهم به إنما هو مستند إلى ذلك والآيات في حقهم مقويات بمنزلة تظافر الأدلة ومن فهم هذا انفتح له باب عظيم من أبواب العلم والإيمان بل باب من أبواب الجنة العاجلة يرقص القلب فيه طرباً ويتمنى أنه له بالدنيا وما فيها

يقول رحمه الله

وعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيساعد على تعليق كتاب يتضمن ذكر بعض محاسن الشريعة وما فيها من الحِكم البالغة والأسرار الباهرة التي هي من أكبر الشواهد على كمال علم الرب تعالى وحكمته ورحمته وبره بعباده ولطفه بهم وما اشتملت عليه من بيان مصالح الدارين والإرشاد إليها وبيان مفاسد الدارين والنهي عنها . . .الخ كلامه رحمه الله هذا في صفحة ٦٧٠ المجلد الثاني طبعة عالم الفوائد

وابن القيم رحمه الله في بعض كتبه اعتنى بإبراز المحاسن التفصيلية للشرائع ومن أبرز الكتب التي اعتنى فيها بذلك كتابه إعلام الموقعين

على كل حال هذا نص الاستدراك على الجزء الأول

ننتقل إلى القضية المنهجية الرابعة من القضايا المنهجية المتعلقة بمحاسن الإسلام وهذه القضية هي:

أن الإسلام تميز على سائر الديانات بوضوح العقيدة في الإله وموافقتها للعقل وللفطرة وخلوها عن الخرافات والأساطير الموجودة في تصورات كثير من البشر تجاه الإله أو الألهة ولا يوجد تراث لأمة من الأمم المتدينة يعظم الإله الواحد ويصفه بصفات الكمال والجلال وبالأسماء الحسنى وبتنزيهه عن النقائص كما يوجد عند الأمة المسلمة في كتاب ربها في القرآن الكريم وفي ما صح عن نبيها صلى الله عليه وسلم

وهذه القضية من أظهر القضايا في دين الإسلام والإستدلال عليها لا يحتاج إلى كبير عناء فالقرآن من أوله إلى آخره تمجيد وتعظيم وتنزيه لله سبحانه وتعالى والسورة التي جعلت أعظم سورة في القرآن هي السورة التي تبدأ بحمد الله ثم تصفه بأنه رب العالمين وأنه مالك يوم الدين وتبين العلاقة بين المخلوق وبين الخالق بالتعظيم الذي ينبغي للخالق بأنه لا يُعبد إلا هو ولا يُستعان إلا به

هذه أعظم سورة في هذا الكتاب متعلقة بالخالق ، أعظم آية في كتاب الله سبحانه وتعالى هي أيضاً متعلقة بالخالق من أولها إلى آخرها وهي آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم. . .) إلى آخر الآية ومجرد التأمل في آية الكرسي يوضح للمتأمل وللمقارن في تراث الأديان بأنه لا يوجد عند أمة من الأمم المتدينة تعظيم للإله بمثل ما في آية الكرسي وإذا تأملت في الآية أو في السورة التي عدلت بثلث القرآن ستجد أنها سورة من أولها إلى آخرها تعظيم وتنزيه لله سبحانه وتعالى

فهذه قضية ظاهرة في أعظم سورة في القرآن وأعظم آية في القرآن وفي السورة التي عُدلت بثلث القرآن وفي سائر آيات القرآن الكريم

بينما إذا نظرتَ في سائر الأديان في موقفها من الله سبحانه وتعالى أو من الخالق أو من الآلهة ستجد أن المقارنة ستكون ظالمة، المقارنة بين الإسلام وغيره مقارنة ظالمة في باب الألوهية فلا عناء يجده الباحث في تفضيل الإسلام تفضيلاً متقدماً جداً على سائر ما سواه

وسواء كان في الديانات الإبراهيمية ففي تراث اليهود وفي كتابهم صفات لله سبحانه وتعالى لا تليق به ولا تنبغي له من الندم ومن الصراع مع بعض البشر . . .الخ من الصفات التي لا تليق والتي لا تخفى على كل حال على من يقرأ في العهد القديم

وبالنسبة للنصارى فغموض فكرة الإله والتكلف الموجود فيها والتثليث الذي يحتاج إلى عناء شديد ليُدرك ويُتصور بالعقل أو يُقبل في العقل ومع ذلك فهو أيضاً حتى بعد التأمل وبعد النظر لا يجد الإنسان أن عقله وفطرته يرتاحان لهذا التصور ويطمئنان إليه ، هذا غير تأليههم لبشر يأكل ويشرب وولد وفي تراثهم وثقافتهم أنه صلب أيضاً

أيضاً الديانات غير الإبراهيمية إذا نظرت إلى مثلاً البوذية والهندوسية والزرادشتية والكونفوشوسية وغيرها من الديانات ستجد البون الشاسع الهائل بين التصور الإسلامي النظيف المعظم للإله وبين تصورات الوثنية أو تعدد الآلهة أو

التصورات التي عندها غموض في فكرة أو في عقيدة الإله ، كما قال محمد مزروعة في كتابه الدين وحاجة الإنسانية إليه يقول: إذا أردت أن تعرف صلاحية الدين عند قوم فانظر أولاً إلى عقيدتهم في الله ا .هـ

الاعتقاد في الله عند المسلمين لا يقتصر على حسن التصور ووضوحه وإنما له خاصية أنه يستلزم السلوك والعمل والتعبد

يعني من جلال وكمال وعظمة التصور الإسلامي عن الله سبحانه وتعالى أنه لا يقتصر على مجرد الوصف الكامل إنما هذا الوصف يقتضي التعبد والخضوع والذل لله سبحانه وتعالى

في ذلك يقول فريد الأنصاري في كتابه جمالية الدين:

فالربوبية إذن لمن عرفها حقاً وصدقاً جالبة للمحبة لأنه إذا كانت الألوهية وهي عقيدة المحبة وما تفرع عنها خوفاً ورجاءً كما أصّلنا مبنية على الربوبية فمعنى ذلك أن الربوبية ذات خواص تجلب إليها القلوب فتألهها

إذن هذا الاعتقاد الإسلامي العظيم في الله سبحانه وتعالى على وضوحه وجلاله وجماله إلا أنه يزيد على ذلك اختصاصاً بأنه يقتضي التعبد لهذا الإله سبحانه وتعالى

ومن المعلوم عند علماء الاعتقاد الإسلامي أن من أبرز الأدلة التي استدل بها الله سبحانه وتعالى على المشركين في أنه المستحق للإلهية وحده للتعبد وحده الاستدلال بقضية الربوبية وصفات الله سبحانه وتعالى

ولذلك نجد أكثر الكلام في التوحيد في كتاب الله سبحانه وتعالى خاصة فيما يتعلق بمناقشة المشركين هو الكلام في توحيد الألوهية ، وأن من أبرز الأدلة على ذلك أدلة توحيد الربوبية وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية أو توحيد الألوهية

وهذا الأمر ولّد عند المسلمين ارتياحاً كبيراً في تصورهم عن الله سبحانه وتعالى فهم لا يواجهون التحديات في أصل اعتقادهم ولذلك أيضاً نجد أن مثيري الشبهات والإشكالات في الغالب يوجهون سهامهم إلى أحكام عملية فرعية في الشريعة الإسلامية و لا يتوجهون إلى أصل تصور المسلمين واعتقادهم في الله تعالى

لأنه تصور لا مدخل للطعن ولا للتشكيك فيه ، وهو تصور موافق للعقل ولمقتضيات الفطرة والنفس الإنسانية

وإذا اتضحت العقيدة في الله سبحانه وتعالى فإن ماوراء ذلك من أمور الاعتقاد سهل واضح بيّن يسير

بخلاف ما لو كان الأصل غير واضح فإن تفاصيل الاعتقاد الأخرى سيكون فيها إشكال

فمثلاً الإيمان بالمعجزات هو فرع عن الإيمان بالله سبحانه وتعالى القدير العليم الحكيم مسبب الأسباب وخالق الكون وقوانين الكون وقبل ذلك الإيمان بأصل النبوة هو فرع عن الإيمان بالله سبحانه وتعالى الكامل العظيم العليم الحكيم إلى غير ذلك من صفات الله سبحانه وتعالى

فأصل الأصول وهو الإيمان بالله هو في غاية الوضوح والسهولة والكمال والجمال والبهاء في دين الإسلام بخلاف سائر الأديان في هذه القضية الكبرى في هذه القضية الأصل وكما قلت تراث الأديان منثور فيما يتعلق باعتقادهم في الله سبحانه وتعالى ومن يجري هذه المقارنة يخرج بنتيجة واضحة لا ارتياب فيها ولا محل فيها أصلاً للجدل ولا للنقاش . .

القضية المنهجية الخامسة من القضايا المتعلقة بمحاسن الدين الإسلامي هي

أن الإسلام كما جاء بالمعرفة وبالأمر والنهي وبالصفات والأمور النظرية فإنه قد جاء مع ذلك بالنموذج العملي المطبّق لهذه التعليمات وهذه المعارف وهو النبي صلى الله عليه وسلم

وفائدة ذلك وثمرته أن لا ينظر المسلم إلى تعاليم الإسلام على أنها شيء لا يمكن تطبيقه ولذلك اختار الله سبحانه وتعالى نبيه من البشر فلو كان من غير البشر لقيل إن من طبَّق هذا الإسلام هو شخص من خارج خصائص البشر

ولذلك أيضاً ابتلى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ببعض العوارض التي تعرض للبشر حتى يدرك الناس أن هذا الرجل الشريف العظيم وإن اختاره الله سبحانه وتعالى وإن اصطفاه واجتباه بالنبوة إلا أنه بشر يعرض له ما يعرض للبشر من المرض والتعب والمصائب وغير ذلك مما عرض للنبي صلى الله عليه وسلم من جملة الابتلاءات التي هي معروفة ومنثورة في سيرته صلى الله عليه وسلم

ثم تفاعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع هذا النموذج العملي تفاعل مذهل وتفاعل يعجز اللسان عن وصفه والتعبير عنه لأنه لا يوجد شخصية في التاريخ كله اعتني بأقوالها وأفعالها وتسجيل سيرتها ودقائق أحوالها كما اعتني بالنبي صلى الله عليه وسلم وهذه مكتبات الدنيا شاهدة على صدق هذا الكلام

والدراسات التي كتبت . . أولاً الأقوال أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله هذه استحدث المسلمون لأجل حفظها قانوناً علمياً هو أجلّ وأدقّ قانون لحفظ الأخبار والمرويات وهو علم الحديث

فعلم الحديث لم يُعمل و لم يُستحدث ولم يُبتكر إلا لأجل حماية أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من أن يدخلها التغيير

كذلك الكتب المؤلفة في سيرته الشاملة ما يتعلق بمولده ونشأته وحياته قبل النبوة ومرحلة النبوة المرحلة المكية بعد ذلك ثم المرحلة المدنية كل التفاصيل المتعلقة بسيرته وبمراحل حياته هذه علم كامل كُتبت فيه مئات الكتب على مر تاريخ المسلمين

وهناك كتب كثيرة أيضاً استخلصت بعض الثمرات السلوكية والأخلاقية المتعلقة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه أيضاً كبيرة جداً

على كل حال من محاسن الإسلام أنه دين جاء بالمعرفة وبتطبيقها وجاء بالتعليمات وبالنموذج الذي امتثلها وجاء بالأخلاق وبالنموذج الذي طبق هذه الأخلاق

ففي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم نجد الامتثال التام والكامل والصورة المثالية لتطبيق ما أمر الله به في القرآن ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها كما في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن

القضية المنهجية السادسة من القضايا المنهجية المتعلقة بمحاسن الإسلام هي

أن مما يبرز محاسن الإسلام ويرسخها في النفس النظر إلى أحوال الجاهلية سواء ما كان منها متقدماً أو ما كان منها متأخراً والتدقيق في النموذج الجاهلي المتقدم الذي كان قبل الإسلام هو من المفاتيح الكبرى لإدراك محاسن الإسلام وذلك بالنظر إلى الجانب الإصلاحي العظيم الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في مقابل ما كان منتشراً بل ومتجذراً في نفوس العرب من الناحية الاعتقادية ومن الناحية السلوكية ومن ناحية العادات والأعراف والتقاليد

وهناك عبارة مشهورة لويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة وبالمناسبة ما تكلم به عن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب هو لم يكن معترفاً للرسول صلى الله عليه وسلم بما ينبغي له وبل إنه أشار إلى بعض الطعونات في الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن تأبى الحقيقة وتأبى الموضوعية على من ينظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن يعترف صاحبها بما اعترف به ويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة في الجزء الثالث عشر في الصفحة ٤٧ يقول:

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارةُ الجو وجدبُ الصحراء وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يداني فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله وقلّ أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به

كما قلتُ هذا اعتراف من شخص ليس في صف الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما هو شخص عارض للتاريخ وكذلك كما قلت لم يعرض لتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم كما ينبغي له أن يُعرض لكن للحقيقة سطوة تخرج على ألسنة المنصفين

مثلاً عندنا كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي حين تكلم عن المنهج الإصلاحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر العصر الجاهلي فقد أسهب طويلاً في الكلام عن العصر الجاهلي ثم قال عن الإصلاح الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم :

لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر وقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء كان غريباً في سرعته وكان غريباً في عمقه وكان غريباً في سعته وشموله وكان غريباً في وضوحه وقربه إلى الفهم فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ولم يكن لغزاً من الألغاز فلندرس هذا الانقلاب عملياً ولنتعرف مدى تأثيره في المجتمع الإنساني والتاريخ البشري

إذن هذا من الكتب التي اعتنت ببيان الإصلاح الهائل الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم

هناك كتاب وقفتُ عليه مؤخراً وهو كتاب مقاصد القرآن من تشريع الأحكام

هذا اعتنى أيضاً المؤلف الدكتور عبد الكريم حامدي اعتنى بإبراز الجوانب الإصلاحية التي جاء بها القرآن وأحدث بها التغيير الهائل في المجتمع

مثلاً عنده مقصد القرآن في تحقيق الصلاح الفردي مقصد إصلاح العقل إصلاح الاعتقاد وأثره ف إصلاح العقل إصلاح التفكير مقصد إصلاح النفس إصلاح الجسم مقصد القرآن في تحقيق الإصلاح الاجتماعي الإصلاح العائلي إصلاح نظام الزواج إصلاح نظام الزوجية إصلاح نظام الطلاق الإصلاح المالي إصلاح نظام الكسب إصلاح نظام المحافظة على المال

الإصلاح العقابي الإصلاح السياسي إصلاح أسس النظام التشريعي . . .الخ من الأمور التي ذكرها في الجوانب الإصلاحية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم

ومن لطيف ماجاء في ذلك أيضاً ما كتبه محمد عبدالله دراز رحمه الله في مقدمة كتابه نظرات في الإسلام يقول بعد أن ذكر فتوحات الاسكندر وتجربة الاستعمار ثم قارن ذلك برسالة الإسلام: قال :

أما رسالة الإسلام فإنها حين بسطت جناحيها في أقل من قرن على نصف المعمور كانت كأنما أنشأته خلقاً آخر لقد بدّلته من أوطانه المتفرقة وطناً واحداً ومن قوانينه المختلفة قانوناً واحداً ومن آلهته المتعددة إلهاً واحداً

لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلاً وبدلت أسلوب تفكيره تبديلاً بل عمدت إلى لغته فأضافت لغة القرآن لساناً إلى جانب لسانه وكثيراً ما أنسته لسانه الأصيل وجعلت لسان الإسلام هو لسانه الوحيد ثم هي لا تزال في كل عصر تتلقى معاول الهدم من أعدائها فتكسر هذه الصدمات على صخرتها وهي قائمة تتحدى الدهر وتنتقل من نصر إلى نصر

فليحاول الباحثون ما شاؤوا أن يعرفوا مصدر هذه القوة الغلابة وهذا الانتصار الباهر، إن هذا النجاح ليس مرده في نظرنا إلى سبب واحد من الأسباب ولا إلى فضيلة واحدة من الفضائل ،لقد تظافرت عليه شخصية الداعي ومنهاج دعوته وشخصية الأمة التي تلقت تلك الدعوة وطريقة الدعوة نفسها ومن وراء ذلك كله كلاءة الله ورعايته لهذه الرسالة حتى بلغت كمالها

ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بصاحب الرسالة ثم ما يتعلق بالرسالة نفسها ثم انتقل إلى التشريع الإسلامي

وإذا كان العلم الحديث العلم الطبيعي الذي يرفع رأسه على أنه المنافس الأوحد بل هو في نظرهم المتغلب على الأديان إذا كان يفخر أنه أصلح أحوال البشرية أو تقدم بالبشرية عما كانت عليه قبل ذلك فالمنتصرون للعلم الطبيعي المغالون

فيه لا يفتئون من ذكر الحالة الانتقالية الهائلة التي انتقلت فيها البشرية مما قبل العلم الطبيعي إلى ما بعد النهضة العلمية الحديثة

ولكن إذا أردنا أن ندقق في هذه القضية تحديداً فسنجد أن النهضة العلمية الطبيعية على أنها نهضة مذهلة متجاوزة لمقاييس التقدير العادي إلا أنها نهضة جزئية ،نهضة في مجال معين مجال محدد وهو مجال المادة ،فهي نهضة علمية مادية بحتة هي متعلقة بما يخدم الإنسان في حدود عيشه في هذه الحياة ،في حدود عيشه حتى ليس في كل الجهات إنما في جهة واحدة ،أما أن يكون لها أثر على الإنسان من جهة تحديد قيمه وأخلاقه ومعايير ذلك أو من جهة الإجابة عن أسئلته البشرية الكبرى الغائية أو أن يكون لها الأثر في إصلاح الإنسان من جهة سلوكه ومن الناحية الاجتماعية والأسرية فهذا كله بعيد كل البعد عن النهضة العلمية الحديثة وآثارها

هذا فضلاً عن أن المجال الذي نهضت فيه أوالذي ارتفعت فيه هذه النهضة وهو مجال الحس والمادة والتقدم البشري المحسوس إلا أنها مع ذلك قد أتت بالكوارث على الإنسان وعلى البشر في هذا المجال نفسه، وما هذه الملايين التي قُتلت في الحروب الإنسانية في العصر الحديث التي لا يوجد لها نظير ولا مثال على مر تاريخ البشرية هذا كله ساهم في تكثير عدد القتلى وفي تشويه الأجنة وفي تدمير الحياة البشرية ،ساهم في ذلك كله ما أنتجه العلم الحديث من أسلحة الدمار الشامل ونحو ذلك

يقول ريتشارد كوك وصديقه في كتاب انتحار الغرب:

وتضاعف الشك في العلم على نحو ضخم وتعمق نتيجة لفضائع هيروشيما والخوف الحقيقي نفسه وقد أعطى تبريراً كافياً في أزمة صواريخ كوبا في عام ٦٢ ميلادي من أن الترسانات النووية كانت تستطيع أن تدمر الحضارة الإنسانية وقد عبّر العلماء البارزون بصوت عالٍ عن شكوكهم وقال أينشتاين بعد هيروشيما: لوكنتُ أعرف أنهم كانوا سيعملون هذا لكنتُ عملتُ صانع أحذية

هذا الكلام في صفحة ١٤٠ من النسخة المترجمة لكتاب انتحار الغرب

أيضاً هناك عبارات متعددة في التعبير عن هذا المعنى

ومن أهم الأمور أن هناك فلاسفة وعلماء تنبهوا إلى أن العلم الطبيعي لم يتعامل مع الإنسان بالنظرة التكاملية للإنسان وإنما اختزل مكونات الإنسان في نظرة مادية جزئية ،ومن أشهر المفكرين الذين اعتنوا بإبراز النقص في النظرة المادية للإنسان المفكر المصري عبد الوهاب المسيري رحمه الله تعالى، وقد اعتنى بذلك عناية خاصة ونثر نقوداته على النظرة المادية للإنسان التي تفكك الإنسان نثر ذلك في منشورات أو كتب أو في مواضع كثيرة من كتبه بل وأفرد كتاباً في ذلك وهو كتاب الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان

في كتاب آلام العقل الغربي لريتشارد تاباس ذكر أن عدداً غير قليل من المراقبين وهو يتكلم عن مرحلة تطور العلم الطبيعي أن عدداً غير قليل من المراقبين يشعرون بأن من شأن مثل هذه التطورات أن تكون نذر شؤم ممهدة لقلب القيم الإنسانية رأساً على عقب

وخلاصة الأمر أن العلم الطبيعي إذا كان أنصاره والغلاة فيه يقارنون بين حال البشرية بعد النهضة العلمية الحديثة وقبل النهضة العلمية الحديثة فإن لنا تمام الحق أن نقارن بين حال البشرية وخاصة في المنطقة العربية قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ،فالانتقالة الهائلة الإصلاحية هي انتقالة لا تقارن أبداً بفضائها الرحب وسعتها وشموليتها لا تقارن بالصورة المشوهة المختزلة التي شوهت الإنسان واختزلته في إطار مادي ضيق وهو ما يتعلق بالنهضة العلمية الحديثة، فهم يقارنون ونحن نقارن وشتان بين المقارنتين مقارنة تختزل الإنسان وتفكك الإنسان وبين مقارنة تنظر إلى الإنسان نظرة تكاملية في كل جوانبها

وما التأخر الذي نحن فيه الآن بسبب الالتزام بتعاليم الإسلام بل هو تأخر بسبب البعد عن هذه التعاليم وهذه النهضة التي يفاخرون بها ليس في الإسلام ما يعارضها ليس في الإسلام ما يعارض النهضة بالعلم ولا التأمل في الأرض ولا استغلال موارد الأرض ولا التنمية التي يمكن أن ترتقي بالإنسان في العمارة والمادة، فليس عندهم معطى يتميزون به علينا من جهة التنظير في هذه القضية إلا أنهم عملوا، والإشكال أنهم بعد أن عملوا اختزلوا وغالوا في هذا العمل، لكن

نحن في ثقافتنا الإسلامية في المصادر الإسلامية التي نصدر عنها نتفق معهم في أصل التنظير من جهة أن الإسلام لا يمانع ولا يعارض هذا التقدم المادي بل يدعو إلى التأمل والتفكر والاستفادة من خيرات الأرض ،وهذا مقتضى ما سخر الله لنا من خيرات الأرض كما ذكر ذلك في كتابه سبحانه وتعالى ولكن تتميز عنهم في أن إصلاحنا كان إصلاحاً شمولياً عاماً متنوعاً ليس مختزلاً ولا ناقصاً ولا مشوهاً

القضية المنهجية السابعة المتعلقة بمحاسن الإسلام هي

أن المدافع عن الإسلام من جهة محاسنه إذا تعرض لمن يشككه في صلاحية الإسلام وفي حسنه فإنه يستطيع أن يقلب الدليل على المستدل ويستطيع أن يعترض على المعترض بنفس الأبواب التي اعترض بها وإذا تأملنا في تشكيكات المشككين في شرائع الإسلام من جهة حسنها وصلاحيتها فإن عامة الإشكالات التي يثيرونها تعود إلى أبواب ثلاثة كبرى وهي أبواب المرأة وأبواب الجهاد وأبواب الحدود

فهذه الأبواب الثلاثة في الإسلام هي أبرز ما يُنتقد ويشكك فيه من جهة حسنه وصلاحيته ،وإذا تأملنا في كل باب منها من جهة النظر في مقاصد الشريعة من تشريع الأحكام المتعلقة بها ومن جهة تتبع الأحكام العملية التفصيلية المتعلقة بها فإننا نستطيع أن نفاخر البشرية بهذه الأنظمة التي جاءت في الإسلام في هذه الأبواب الثلاثة

ولنأخذ على سبيل المثال ما يتعلق بالجهاد والقتال في الإسلام فإنه من المعلوم أن أبرز ما يُعرف به الإسلام في هذا العصر أنه دين وحشي وأنه دين عنف وأنه دين قتل وسفك للدماء وليس دين رحمة ولا دين قوانين تضبط محاربيه وتدفعهم إلى التعامل الأخلاقي في هذا المجال وفي كل مجالات الحياة

وفي الحقيقة فهذه نظرة ظالمة وهي نظرة لا ترتبط بتعاليم الإسلام الأصلية ولا ترتبط بالنموذج العملي الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وإذا ذهبَت إلى مصادر الإسلام لتأخذ منها أو إلى النموذج العملي الكامل وهو نموذج النبي

صلى الله عليه وسلم لتأخذ من سيرته فإنهم يمارسون الاختزال والإنتقاء ولا ينظرون إلى مجموع ما جاء في النصوص ولا إلى مجموع ما جاء في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ،وهذا ظاهر جداً عند من يعرف خطاب المشككين في الإسلام من جهة هذه الأبواب

وإذا تأملت في أحوالهم فإنهم في الغالب يؤسسون لنظرتهم عن طريق بعض الممارسات المعاصرة لأناس منتسبين إلى الإسلام ممارسات قتالية معاصرة وإذا أردت أن تحاكمهم إلى ممارسات قتالية معاصرة من جهة الجانب الإلحادي أو العلماني أو النصراني أو اليهودي فكثير منهم يدافعون عن ذلك بأن هذه نماذج لا تمثل الثقافة العلمانية ولاتمثل الثقافة الإلحادية وإنما هي نماذج استغلالية بشرية فإذا أردنا أن نقول كذلك إن ليس كل من قاتل باسم الإسلام فإنه يمثل الإسلام وليس كل من رفع سلاحه منتسباً إلى شريعة الإسلام فإنه يمثلها حقاً ،ليس كل من فعل ذلك فهو كذلك ،والفارق بين المسلمين وبين غيرهم في هذه القضية أن أول من ينكر على من يخالف تعاليم الإسلام في القتال هم المسلمون أنفسهم وأما في المخالفات القتالية في الثقافات والأديان أو الممارسات أو التوجهات الأخرى فإنك لا تجد إطباقاً من الناس على إنكار بعض الممارسات القتالية وإن كان فيهم من ينصف فينتقد

لكن التقييم الحقيقي للإسلام هو في أصوله من الكتاب والسنة وفي ممارسة النبي صلى الله عليه وسلم العملية ،وقد أفردت دراسات في ذكر محاسن الإسلام في الحرب وأخلاق الحرب ،فعندنا مثلاً من الدراسات المعاصرة كتاب أخلاق الحرب في السيرة النبوية لحسن الطيلوش وهو كتاب صادر عن مكتبة الأمة أو دار الأمة، وعندنا كتاب آخر أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية لناصر محمدي محمد جاد وهو كتاب صادر عن دار الميمان، وكلا الكتابين فيهما استعراض لأخلاقيات الحرب في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والقوانين الضابطة للمسلم

وفي الحقيقة عند التأمل في القوانين الضابطة لأخلاق المحارب المسلم بين الإسلام وبين غيره نجد في الإسلام شيئاً عجيباً جداً ويظهر العجب والتميز فيما وراء الأضواء حين تكون القيم محل اختبار حقيقي فيما لا يشاهده العدو ومالا يرى العدو فيه ما يدور وما يجري ،فإن المراءاة أمر يمكن أن يقوم به أي أحد ولكن أن تكون الأخلاق الإسلامية في مجال

الحرب أحكاماً مغلظة مشدداً فيها في داخل المجتمع المسلم نفسه في إطار التعليم الإسلامي تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه في وقت لا يشاهده فيه المشركون ولا يراه فيه المخالفون ثم يعطَى المسلمون كل التعاليم الصارمة حتى في غير وقت الحرب يُعطون التعاليم الصارمة بأن يلتزموا بالقوانين التي تبعدهم عن الخيانة والغدر والوحشية والعنف في تمثيل وتشويه جثث القتلى ونحو ذلك فهذا كله ليس إلا في الإسلام

ومن أعجب ما جاء في ذلك ما جاء في صحيح مسلم أن حذيفة رضي الله عنه وهو في طريقه إلى المدينة تعرض لأشبه ما يكون بالأسر المؤقت أو المحاقة أونقطة التفتيش من المشركين فعرفوا أنه ذاهب إلى المدينة فأطلقوه على شرط ألا يشارك في الحرب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فلما وصل طبعاً هو قال ذلك لينجو من المشكلة لينجو من الأسر وهذا حال أشبه ما يكون بحال الإكراه وتؤخذ كلمة الإنسان منه حال الرضا وحال القوة أمام القوة وأما أن يكون مستضعفاً فتؤخذ منه الكلمة

على كل حال حين رجع للنبي صلى الله عليه وسلم كان هذا في بداية التجهيز لمعركة بدر فلما أراد حذيفة أن يخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم قال النبي صلى الله عليه وسلم له نستعين بالله عليهم ونلتزم عهدهم ،ولم يخرج

فهذا كان سبب عدم حضور حذيفة لمعركة بدر وهو من هو من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فهذه الحالة من المحافظة على العهد مع كل هذه المعطيات هذه حالة لاتجدها إلا في الإسلام

حين ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المعاهد هذا أمر موجود في عدد من الثقافات أو عدد من الأديان أو عدد من القوانين أن العهد له قيمة لكن أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين فيخاطبهم بأغلى وأعلى مايطمحون إليه وهو الجنة فيقول لهم كما في صحيح مسلم : (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة )

فهذا الوعيد على من قتل المعاهد وهو كافر غير مسلم هذا الوعيد الشديد للمسلم إذا قام بهذا العمل هذا لا شك أنه يغلظ الجانب الأخلاقي عند المسلم

حين يكون نهاية القتال ويمارس هذا قبل البدء بالقتال وأثناء القتال وبعد القتال حين يكون نهاية الأمر هو الشهادة لخالق الكون بأنه إله واحد ولرسوله بأنه رسول من عنده بلغ الرسالة حين يكون هذا فهذا جانب لا نجده في الحروب المعاصرة التي دمرت الإنسان واستولت على خيرات أراضي المسلمين

هذا من القضايا المنهجية وإذا أردنا أن ننظر إلى المرأة نفس الشيء فإنه يمكننا أن نتفاخر وأن نفتخر بما جاء في الإسلام من محاسن في باب المرأة وأما الطعونات على الإسلام في باب المرأة فغالباً تنطلق من قواعد هشة ومن افتراضات مسبقة بأن التعامل الصحيح مع المرأة هو أن يكون تعامل المساواة التامة بين الرجل وبين المرأة دون أي تفريق بينهما في كل مجالات الحياة وهذا في الحقيقة منطلق فاسد وليس هذا مجال تفصيله على كل حال ،يمكن أن نكتفي بنقل واحد عن لأحد الحائزين على جائزة نوبل في الطب وهو ألكسيس كاريل حين يقول:

إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص بالأعضاء التناسلية ومن وجود الرحم و الحمل أو من طريقة التعليم إذ إنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض ،ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً وأن يُمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي فالقوانين الفيسيولوجية غير قابلة للّين مثل قوانين العالم الكوكبي فليس بالإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة

هذا في كتابه : الإنسان ذلك المجهول طبعة المعارف صفحة ١٠٢

وعلى كل حال الكلام في إكرام الإسلام للمرأة وخاصة إذا نظرنا إلى المرأة في مستوى الأمومة فإننا لا نجد تقديراً ولا احتراماً ولا توصية ولا أمراً برعاية حقوق الأم وتقديرها والابتعاد كل البعد عن تحزينها أو الإثقال عليها فضلاً عن ضربها أو هجرها لا نجد أي شيء يشابه الإسلام لا من ناحية التنظير ولا من ناحية الواقع العملي كذلك

حتى مع ابتعاد كثير من المسلمين عن الالتزام بكثير من تعاليم الإسلام إلا أن تقدير الأم وتعظيم الأم والقيام بحق الأم لا زال حاضراً بقوة في العالم الإسلامي أكثر بكثير بل ولا مجال للمقارنة بين الواقع الإسلامي في تقدير المرأة الأم وبين تقدير المرأة الأم في عالم النهضة العلمية الحديثة

لو أردت أن أتابع النظرات المنهجية في محاسن الإسلام لطال الحديث أكثر من ذلك بكثير فإن أمر الإسلام أعظم من أن تبين محاسنه وخصائصه في مثل هذه العجالة، وبقي عندي عدد من النقاط التي أراها مكتوبة أمامي مما جهزته لهذه المادة وأشياء كثيرة منها ما هو متعلق مثلاً بتوازن النموذج الإسلامي وأنه لم يكن مجرد ردة فعل للتخلف الذي كان عليه العالم في وقت ظهور الإسلام فلم يكن الإسلام ديناً مندفعاً جاء هادماً لكل شيء مندفعاً في كل شيء دون أن يكون متزناً في أوامره في نواهيه، بالعكس نجد الاتزان الشديد فيما جاء به الإسلام فنجد أن هناك من المتحمسين للإسلام ممن انتصر على التعاليم الجاهلية التي كانت سائدة وتحمس للإسلام حماساً كبيراً فنجده أقبل على الإسلام إقبالاً شديداً نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم يكبح جماح هؤلاء إلى الاعتدال والتوازن

فهذه النظرة المتجاوزة لردات الفعل نظرة عظيمة جداً وهو باب شريف من الأبواب التي ينبغي أن ينظر إليها الباحث في محاسن الإسلام وينظر إليها نظرة شمولية ليس فقط مواقف جزئية وإنما ينظر نظرة شمولية نظرة التاريخ نظرة الواقع الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في مقابل الحال الجاهلية وقوة التعاليم الإسلامية ومع ذلك تجد قوة التوازن والاعتدال في ثنايا التعاليم الإسلامية

وما حادثة الثلاثة الذين أراد أحدهم أن يعتزل النساء تعبداً والآخر ألا يأكل اللحم تقشفاً والثالث ألاينام الليل قياماً وصلاة لله سبحانه وتعالى فتجد أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل مع هذه الحالة لا بطريقة المدح بل بطريقة الذم ويذكر عن نفسه أنه لا يفعل ذلك ثم يقول: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)

والأحاديث في التوصية بالاقتصاد والاعتدال وعدم الإفراط والغلو في الدين هذه أحاديث كثيرة لا يجهلها أي مطلع على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم هذا جانب لم أذكره وهو من الجوانب المهمة

على كل حال اسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك في هذه المادة وأن يغفر لي فيها التقصير والزلل في النية والقول والعمل وصل اللهم ربنا وبارك وسلم على عبدك ورسولك وخير خلقك محمد بن عبد الله